مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، سبحانه لا مانع لما وهب ولا معطي لما سلب تفرد بالملك والبقاء، والعزة والعظمة والكبرياء واحد أحد فرد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وهوقائم بلا عمد، ودائم بلا أمد، بالبر سبحانه معروف، وبالإحسان موصوف معروف بلا غاية، وموصوف بلا نهاية، من تكلم سمع نطقه، ومن سكت علم سره، ومن عاش فعليه رزقه، ومن مات فإليه منقلبه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد رسول الله، فصلي اللهم على حبيبك ومصطفاك ومن أرسلته رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.. وبعد،،،

إن الباحث في الفلسفة بوجه عام، يجد أن الفكر الفلسفي ملازم للإنسان منذ وجوده، بل ويُعد حلقة من حلقات التاريخ الإنساني التي لا ينفصل عنها.

" فالفلسفة في حقيقة أمرها تعد ظاهرة إنسانية، تتجاوز حدود المكان والزمان، ويطرأ عليها ما يطرأ على الإنسان من تغيرات أو توجهات.

وهذا يؤكد عدم صدق الإفتراء المزعوم: بأن الفلسفة تثير عند كثير من القراء غير المتخصصين شعوراً غريباً بالنفور من هذا التخصص، الذي يعد – في نظرهم – تعبيراً عن شيء مبهم وغامض، لا سبيل إلى فهمه، ولا جدوى من الإشتغال به، إذ ليست له نتائج عملية ملموسة في الحياة، فالإشتغال به جهد ضائع، وإنهاك للفكر فيما لا طائل من ورائه، وقديماً

قال أفلاطون: إن الجمهور ميال لإعتقاد أن الفلسفة عديمة النفع.

على الرغم من أن الكثيرين يستخدمون في تعبيراتهم العامة كلمة " فلسفة " للتعبير عن إتجاهاتهم العامة، فيقال مثلاً: فلسفتي في الحياة، وفلسفتي في عملي، ويُقنع الكثيرين بهذا الإستخدام السطحي للفظ الفلسفة، إما تجملاً في الحديث أو تظاهراً بالثقافة أمام الغير.

وهذا يكشف أن التفكير الفلسفي ليس حكراً على الفلاسفة، إذ أن الإنسان بما وهبه الله من عقلٍ يفكر به، هو ليس شيئاً أخر غير استخدام العقل في التفكر والتأمل، وإلقاء نظرة فاحصة إلى الوجود وشعابه، ومحاولته للإجابة عما أُغلق عليه فهمه، وهذا هو التفلسف.

فالفلسفة في واقع الأمر ليست بالشيء الدخيل على الإنسان، فحياته حلقات متصلة من الفكر والتأمل، وهي ظاهرة ملازمة لوجوده، ولن تزول هذه الظاهرة من الحياة ما دام هناك إنسان في هذا الوجود " [1].

ورغم كل هذا، فإننا لا ننكر أيضاً " أن من يدرس تاريخ الفكر البشري، يلاحظ أن المسائل العقلية البحتة التي طُرحت للبحث العقلي في العصور القديمة، هي نفس المسائل التي طُرحت للبحث في العصور الوسطى والحديثة، وأن مسائل البحث في مسائل ما وراء الطبيعة والأخلاق ما زالت كما كانت مجالاً للبحث، إلا أنها لم تتقدم خطوة واحدة نحو الحل الأمثل والأصوب.

ولقد حاول القدماء – كما حاول المحدثون – اختراع مقياس فيصل للتفرقة بين الحق والباطل، ومن أشهر المقاييس القديمة، ما اخترعه

(١) أ.د/ محمود حمدي زقزوق : مقدمة في الفلسفة الإسلامية، ص٧- ١١ بتصرف، طبعة المعهد العالي للدراسات الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٣م.

أرسطو تحت عنوان " المنطق " ولكن هذا المنطق لم يعصم فكرة المخترع نفسه من الضلال.

ولقد برع في المنطق كثير من المفكرين القدماء، ومن مفكري الإسلام، وجميعهم اختلفوا في آرائهم وفي نزعاتهم ولذلك ارتكزوا إلى أدلة عقلية، يسهل جداً هدمها عقلياً، كما يسهل جداً هدم الهدم.

لقد قام الإمام " الغزالي " بعملٍ عظيم ممثلاً في كتابه " تهافت الفلاسفة " حيث قام بهدم آراء الفلاسفة رأياً رأياً، فنهارت تحت قلمه، وسقطت في ضوء بيانه، واستغرق في هدم الآراء ما يقرب من خمسة وتسعين في المائة من كتابه، أما الخمسة في المائة الباقية، فقد أبان فيها الغزالي، الأساس الذي قام عليه الكتاب، وهو بيان أن العقل الإنساني لا يتأتى إلا ظنيات لا تصل إلى اليقين، وأنه غير مؤهلٍ للبحث في عالم الإلهيات والأخلاق.

ومضى الزمن – في طريقه – بعد الغزالي، حتى جاء ابن رشد، فأخذ يهدم آراء الغزالي في نقد الفلاسفة، وكان أبرع رد على ابن رشد – كما يقول فضيلة الدكتور/ عبدالحليم محمود – أن عمله هذا إنما كان تأييداً للإمام الغزالي أكثر مما كان هدماً، وأن ابن رشد هدم نفسه وأيد موقف الغزالي "[1].

ثم يأتي غزالي أخر يسير على نهجه في منوال تهافت الفلاسفة، ألا وهو: علاء الدين الطوسي، الذي أكد في مطلع كتابه " تهافت الفلاسفة – المسمى بالذخيرة " أنه سار على نفس طريقة الغزالي في النقد والهدم

(١) فضيلة الكتور/ عبدالحليم محمود : الإسلام والعقل، ص٩ – ١٠، ط٥، دار الرشاد بالقاهرة، ٢٠٠٨م.

لأراء الفلاسفة، فنراه يقول: فأعجلني الوقت عن الإستقصاء في الكلام وإيراد كل ما يتعلق بما صنعه من المباحث على التمام من النقض والإبرام، والهدم والإحكام، فوافقت الإمام المرشد في الأصل – يقصد به الغزالي – لكن لا بطريق التقليد، بل بمقتضى التحقيق البحت، أو بما هو شريطة المناظرة والبحث، فإن التقليد في أمثال هذا من نزالة الجد وسفالة البخت "

ولعل أبرز ما توافق عليه الغزالي والطوسي – من وجهة نظري – هو " أن بداية التفلسف عند المتفلسف، هي بداية التمرد الديني، وبداية التوفيق بين الدين والفلسفة، هي بداية النفاق في المحيط الفلسفي، وأن محاولة التوفيق بين النتاج الإنساني في مجال ما وراء الطبيعة – وهو الفلسفة – وبين الوحي الإلهي، إنما هي مهزلة من المهازل الكبرى التي تلجأ إليها الإنسانية لإرضاء غرورها وكبريائها.

والتوفيق معناه: أن تضع الطرفين موضع التساوي والمماثلة والموازنة، من حيث القيمة الإعتبارية والمصدرية، ثم تبدأ تجر أحدهما إلى الأخر تحت ستار التأويل والتفسير والشرح، ثم تحاول بطريق أخر، أن تجعل كلاً منهما يتنازل للأخر عن بعض مجالاته أو ألوانه أو مفاهيمه، حتى يلتقيا " [١]

فالغزالي والطوسي " يرفضون الفلسفة التي فقدت مسارمجالها الصحيح، وهو مجال الكون والعلوم (الفيزيقا) واشتغلت (بالميتافيزيقا) والجدال حول صفات الله وذاته والمناطق الغيبية التي يجب أن تترك للوحي (الصحيح) وحده، لأنها فوق قدرات العقل البشري، والتفلسف فيها مرفوضة، وهي منطقة سمعية لا يقوى العقل على التفلسف فيها.

(١) فضيلة الكتور/ عبدالحليم محمود : الإسلام والعقل، ص٦٥ بتصرف.

لهذا نجد أن أغلب الفلاسفة المسلمين، أبتعد عن الخوض في جدليات الفلسفة اليونانية، بل أكثرهم دافع عن ذات الله بأدلة الإختراع والإبداع، بل ونقض المناهج اليونانية (أفلاطونية وأروسطية) [١]. هذا من جهة.

ومن جهة أخرى: توافقهم على " أن العقل له دوره الكبير في الحضارة المادية - بل بأكملها - أما في مجال العقائد والأخلاق فإنه لا يصل لليقين.

فهم يرون – كما يبدوا لي – " أن العقل المسلم، ينبغي أن يكون قرأني التصور لمفاهيم التوحيد ولصفات الكمال والجلال، التي يتصف بها الخالق جل وعلا.

وأن هذا العقل، الذي تُشكل المفاهيم القرأنية تصوراته عن الألوهية والربوبية، لا يمكن أن يرقى إلى قمته عقل كائناً ما كان، لأن الشرع هو الحارس الأمين للعقل، خوفاً من انزلاقه في الضلال، فالتاريخ يحدثنا: أنه بسبب غياب "العقل الإيماني" من أدعى الألوهية والربوبية من الملوك والأباطرة والفراعين.

إذاً فالعقل الحق عندهم – كما أخبر به الإمام النورسي – هو "العقل الإيماني " أو " العقل القرأني " [٢]

(١) أشرف عبدالرافع الدرفيلي : الحرية والمعرفة عند الإمام بديع الزمان النورسي ص ٢٠٤، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠١٠م.

(٢) أشرف عبدالرافع الدرفيلي : الحرية والمعرفة عند الإمام بديع الزمان النورسي ص ٥٣٠- ٥٣١ بتصرف.

التعريف بالمؤلف:

هو " علاء الدين علي بن محمد الطوسي الحنفي السني – وهو غير نصير الدين الطوسي الفلكي الشيعي – درس العلوم العقلية والنقلية على علماء عصره ببلاد العجم، ثم قدم إلى القسطنطينية – تركيا – فخصص له السلطان محمد بن مراد خان فاتح القسطنطينية – رحمه الله تعالى – مدرسة يدرس بها ومعاشاً، وهو الذي أمره بوضع تصنيف للمحاكمة بين الغزالي والحكماء، فألف الطوسي كتاباً سماه "الذخيرة " في المحاكمة بين الغزالي والفلاسفة.

كتب الطوسي هذا الكتاب في ستة أشهر، وأعطاه السلطان عشرة ألاف درهم.

وفي أخر عمره ابتعد عن أمور الدنيا – وخاصة السياسة – ومال إلى التصوف والإهتمام بأمور الأخرة.

ولقد أجمع الذين كتبوا عن الطوسي أن وفاته كانت في سمرقند سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م "[١].

مؤلفاته: ولعل أبرز مؤلفات علاء الدين الطوسي هو كتابه " تهافت الفلاسفة " المسمى بـ " الذخيرة " ثم يليها شروحه وحواشيه المتعددة، ومنها: حاشية على " التلويح " وحاشية على شرح المواقف " وحواشي

(١) أنظر : الزركلي : الأعلام، ج٥،ص١٦٢، السيوطي : نظم العقيان في أعيان الأعيان، ص١٣٢، البغدادي : هدية العارفين، ج١، ص٧٣٧، طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية، ص١٤٩، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٥م بتصرف.

على حاشية " الكشاف " وشرح " مطالع الأنوار " [١]

التعريف بالكتاب:

١- يعتبر " تهافت الفلاسفة " للعلامة " علاء الدين الطوسي " من الكتب الفريدة، وجوهرة عزيزة، ودرة يتيمة، حيث غاص في جميع القضايا الفلسفية الشائكة التي تخبط فيها الفلاسفة والمتكلمون، فنجا منها بعضهم بقول حسن مستساغ، يتلامس في بعض جوانبه مع ما نص به الكتاب والسنة، ووقع كثيرهم في الخطأ والزلل فأنبرى لهم الإمام العلامة " علاء الدين الطوسي " ليُبين الغث من الثمين، ولكي يفصل في القضايا التي ضمها كل من تهافتي الغزالي وابن رشد، واتخذ نهج الغزالي الذي سار عليه في مناقشته مع الفلاسفة منهجاً ودليلاً، ولكن بذاتية مستقلة في الفكر والرأي، بعيداً عن التقليد، فغاص في بحر العلوم والمعرفة يجمع اللآئل والدرر، وكشف عن عور مغالطهم، وضيق فكرهم، وقصر نظرهم، فبين الصحيح من السقيم، والصواب من الخطأ، مستنداً في كل هذا على نقد بناء، وأسلوب رصين، وعين ثاقبة وفكر نافذ، وشرح وافي غير مطولٍ ممل، ولا موجزٍ مخل، مبتعداً في الوقت نفسه عن التجريح والإنقاص ممن ناقش آرائهم وزلاتهم، بل أراد من وراء ذلك إستكمال ما لم يستطيعوا الوصول إليه، لقلة زادهم، وخفوت رؤية بصرهم وبصيرتهم، ولتمام ما لم تتوصل إليه عيونهم وأفكارهم، ملتزماً في كل هذا بأداب المناقشة والحوار الإسلامي، ومبتغياً الأجر والثواب من الحنان المنان.

٢- يتناول كتاب " تهافت الفلاسفة " لعلاء الدين الطوسي أراء الفلاسفة، ويناقش فكرهم في قضايا كثيرة، كقول بعض الفلاسفة بقدم

---

(١) أنظر : الزركلي : الأعلام، ج٥،ص١٦٢، البغدادي : هدية العارفين، ج١، ص٧٣٧، طاشكبرى زاده : الشقائق النعمانية، ص٦١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧٥م بتصرف.

العالم وأبديته، وقول الملبين بحدوثه، وبسطه لأراء الفلاسفة والمتكلمين في المباحث العشرون، ثم مناقشته لقضية إدراك ذات الله، وعلم الله بغيره من الأشياء، وهل لله ماهية غير الوجود، وهل الله بجسم أم لا، ثم التطرق لمسألة علم الله، وهل الله يعلم بغيره أم يعلم بذاته، وهل للفلك نفس ناطقة محركة له بالإرادة أم لا، وعلم نفوس السماوات بأحوال الكائنات، ومعنى اللوح المحفوظ والملائكة المقربين ومعرفة الأنبياء للمغيبات، وهل النفس الإنسانية مجردة، ثم مناقشته لموضوع قدم النفس وحدوثها.... وغيرها من الموضوعات الفلسفية والكلامية القيمة، التي تخص الباحثين والمهتمين بالفكر الفلسفي بوجه خاص، وتخص المهتمين بالفكر الإسلامي بوجه عام.

منهجية التحقيق والغاية منه:

١- إن " تهافت الفلاسفة لعلاء الدين الطوسي " من المخطوطات القديمة القيمة والنفيسة، التي لها من الأهمية والمكانة العلمية، ما يجعلها جديرة بالتحقيق والطبع، خاصة وأنني كنت أظن أنها لم تطبع حديثاً حتى شروعي فعلياً للعمل بها، ولكن من خلال حديثي مع الأخ العزيز الكتور / سراج الدين محمد نبيه، أخبرني أن الكتور / رضا سعادة حققها في لبنان، ولكنها لم تطبع في مصر، بل من خلال حديثي مع أغلب رواد الفكر الفلسفي المعاصر في مصر والعراق أخبروني عن دهشتهم لوجود تهافت أخر غير تهافتي الغزالي وابن رشد، بل وأخبرتهم عن تهافت أخر قمت بتحقيقه وفي طريقه للطباعة،هو تهافت الخواجة زادة، ولعل هذا دفعني لشيئين:

- القيام بهذا العمل لحاجة المكتبة الإسلامية، ولإظهارها وخروجها للنور، والإطلاع على أهم القضايا الفلسفية ومناقشتها ومحاولة الفصل

فيها برؤية جديدة، وهذا ما قام به العلامة علاء الدين الطوسي.

- إن تقديم هذا الفكر، سوف يُعرف الباحثين وغيرهم من المهتمين بالفكر الإسلامي، على فكر ومساهمة علم من أعلام الفلسفة والفكر في الثقافة الإسلامية، ودوره البارز في إثراء النهضة العلمية، ثم إبراز دور الخلافة العثمانية واحتضانها للعلم والعلماء، وسعيها لنشر المعرفة الإسلامية، بعيداً عن تشوهات وشبهات الفلسفة المادية.

٢- أعتمدت في تحقيقي " لتهافت الفلاسفة المسمى الذخيرة " على عنونة الموضوعات واستقلالية المباحث العشرون وتصنيفها وفهرستها لكي يسهل على القارىء الوصول لموضوعات الكتاب بيسر وسهولة.

٣- تخريخ الآيات والتعريف بالفلاسفة والأئمة والأعلام، مع بعض الإيضاحات الطفيفة، دون الخوض في إثارة النقاش في مسائل فرعية أفرضها على الكِتاب والقارىء، وذلك حتى لا أخرج بالكتاب عن دائرة التحقيق.

أسأل الله العلي الكريم أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يغفر لنا ولولدينا وعلمائنا والمسلمين أجمعين، وأن يجعله لي ولوالدينا ذخيرة يوم الدين، وأن يعاملنا بما هو أهله، ولا يعاملنا بما نحن أهله، وأن لا يعاملنا بعدله وميزانه، ونسأله أن يعاملنا بفضله وكرمه وجوده وعفوه وإحسانه، وأستغفر الله من أقوالنا التي تخالف أعمالنا، ومن كل تصنع تزينا به للناس، ومن عملٍ قصدناه وجهك فخالطه ما يكدره، وأن يمن على الأمة الإسلامية بالنصر والوحدة والهداية والتوفيق، وأن يمن علينا ويعيننا للعمل بكتابه وسنة نبية.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا

محمد وآله وصحبه إلى يوم الدين.

ضبط وتحقيق

أ د / زينب عفيفي شاكر
استاذة الفلسفة الإسلامية

أشرف عبدالرافع الدرفيلي

التمهيد
بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك اللهم يامتفرداً بالأزلية والقدم، ويا مفيض الكون علي العالم من بعد إتسامه بسمة العدم، يامن النوال والجود شأنه ووجود الحوادث حجته وبرهانه، وإفاضة الكمالات علي الممكنات رحمته وإحسانه، وتصريفها في الأحوال والأطوار قدرته وسلطانه.

نحمّدك تحميداً كثيراً، ونمجّدك تمجيداً كبيراً، علي ما كرّمتنا بأجزل آلائك، وخصّصتنا بأفضل نعمائك، وخلّصتنا من مهاوي الجهالة والضلالة، بلطفك وعطائك، وفضلك وبهائك حيث لخّصت لنا طريق معرفتك علي لسان أنبيائك، وبصّرتنا بأن المهتدي هو المقتدي بهدي أولئك، بعد أن جبلتنا علي فطرة نهتدي بها إلي سواء الطريق، وجعلتنا علي خلقة تفضي بنا إلي سلوك مناهج التحقيق.

وذلك بأن مننت علينا بنور من أنوار قدسك، نتوسّل به في التفكر في أسرار ملكك وملكوتك، ونتوصّل به إلي الإطلاع علي آثار عزتك وجبروتك.

فسبحانك ما أمنع سلطانك، وما أرفع شأنك، وما أنفع إمتنانك لا نحصي ثناءً عليك، ولا نهدي إلّا الإعتراف بالعجز إليك ثم نتحف صارت صلواتنا، في جلواتنا وخلواتنا، إلي حبيبك ونجيبك، وصفيّك ونجيّك، أفضل الرسل وموضح السبل.

منقذ من ساعدتهم السعادة من المهالك، ومنفذ من وافقه التوفيق إلي أقصد المسالك، الذي أكرمه الله إلي أن أخدمه أفضل الملائك، صلّي الله

عليه صلاة متوافرة متواترة، لا إنتهاء لأعدادها، ولا إنتفاء لأمدادها، وعلي جميع إخوانه من النبيين وعلي آله الطيبين، وأعوانه وأتباعه من الصدّيقين والشهداء وصالحي المؤمنين، إلي يوم الدين.

سعادة الإنسان في معرفة مولاه

أما بعد، فإن جملة الآراء تطابقت، وجلّة العقلاء توافقت، علي أن لا سعادة للإنسان وراء معرفة مولاه، قدر مقدوره وحسب ميسوره، بما عليه من نعوت كماله، وصفات جلاله وجماله، ولا سبيل إليها إلاّ بالتأمّل في مخلوقاته، والتفكر في مصنوعاته.

ولكنه مهوي سحيق بعيد المرام، قد هلك فيه ممن سلك أقوام وبحر عميق موّاج، فاض ممن خاض فيه أفواج.

فلا يرجي لكل سائح فيه الوصول إلي المأمن والمناص، ولا يظّن لكل سابح فيه السلامة والخلاص.

تعمق الفلاسفة بالنظر والإستدلال:

اذا الأمور الالهية عويصات، تتأبي أن تستقل بإدراكها عقول البشر، ومعضلات لا يتأتي أن يتوصّل إليها بمجرد الفكر والنظر، ولهذا تحزّب الناس فيها أحزاباً، وصاروا للآراء المتخالفة أصحاباً.

فمن ناجٍ فائزٍ بمبتغاه، وهالك حائر بغصّة هواه.

فمنهم من لا يؤبه بحالهم، ولا يعتني بهم لسخافة مقالهم.

لكن معظمهم وهم المتسمون بالفلاسفة، وقد تعمقوا في النظر والاستدلال، وجعلوا العقل في حقائق الأمور – وإن كانت من الإلهيات – حاكماً علي الإطلاق، مدركاً بالاستقلال.

ولم يلتفتوا إلي ما نطق به الوحي الصريح، مع أن ما يخالفه ليس

مقتضي النظر الصحيح.

فلهذا زلّوا في بعض المواضع عن الصراط المستقيم، وضلّوا عن الطريق القويم.

فأسسوا مباني وأصولاً، ووضعوا أبواباً وفصولاً، مخالفة لما تطابقت عليه أنظار الملّيين، وتوافقت عليه أقوال النبيين.

وقد يقع لبعض طلاب العلم الناظرين في أقوالهم، في بادئ النظر ومبادئ الفكر تردّد، بل ميلان إلي صحة ما رتّبوه وقطعيته، وصدق ما فرّعوا عليه وحقيّته.

فلهذا اهتم أئمة الدين، الذابون عن عقائد المؤمنين، بنقل مذاهبهم والتنبيه علي مواقع الخطأ في دلائلهم ومطالبهم.

رغبة الكتابة في المسائل الالهية:

ولما شرّفني الله تعالي بخدمة العلماء، ويسّر لي الإطلاع علي بعض حقائق كلام الأذكياء، وأوقفني بعنايته عن أن كلام أي الحزبين أحق وبالقبول والاتباع أولي وأخلق، كان برهة من الزمان يتلجلج في صدري، ويتخالج في قلبي، أن أكتب في المسائل الالهية وما يتعلق بها، بعض ما تقّرر لي وتحقّق عندي، لعلّه يكون وسيلة إلي رضي مولاي، وذخراً لي في أخراي وأولاي.

ولكنه كان يعوقني عن ذلك عدوان زماني، الذي لا أشتكي منه إلاّ إلي ربيّ، وليتني أدري لما يصنع بي، ماذا جرمي وذنبي.

مديح السلطان:

وهكذا كان يفني الأيام، وكنت أبقي محروماً عن هذا المرام، إلي أن أشار إليّ مولانا ومولى الثقلين – مالك ملوك الخافقين، سلطان سلاطين العالم، المقيد بربقة رقيته رقبة ولاة الأمم قامع سنخ الكفار بالهيبة المتين، والرأي الرزين.

قامع عرق الأشرار، بالشوكة المكين والفكر الرصين، عتاة الولاة لانحرافهم عن سمت طاعته غباة أذلاء، وعراة الرعاة لانخراطهم في سمط عبوديته سراة أجلاّء.

ملأ الله العالم علماً وايماناً بميامنه وبركاته، وأوسع فيه أمناً وأماناً بسكناته وحركاته، لطف الله المحض، لأهل التوحيد والإيمان.

قهر الله البحت، علي أرباب الشرك والطغيان.

المحقق لأسرار نص أن الله يأمر بالعدل والاحسان.

خليفة الرحمن، صاحب الزمان، السلطان بن السلطان والخاقان بن الخاقان، أبو الفتح محمد بن مراد خان، لا زالت الأقدار كما هي الآن علي طبق ما يهواه، ووفق ما يرضاه إلي آخر الدوران.

وأبّد الله تعالي لواء خلافته معقوداً بالسعود، وربط أطناب خيام سلطنته بأوتاد الخلود.

وهذا دعاء أهل الإيمان قاطبة في القيام والقعود، والركوع والسجود ومثل هذا الدعاء عند الملك المعبود غير مردود واشارته العالية نافذة في مشارق الأرض ومغاربها، وماضية في أقاصي الأقطار وأقاربها أن أنظر في

الرسالة المسماه بـ " تهافت الفلاسفة " التي ألّفها الامام الهمام، قدوة الأئمة العظام، مرشد طوائف الأنام، حجة الإسلام، العالم الربّاني شيخنا الصمداني " أبو حامد محمد بن محمد الغزالي " [1] رحمة الله عليه، وأكتب علي أسلوبه ما يسنح لي ويظهر عندي، في كلام الفريقين، وقواعد الطريقين، من جهات التضعيف والترجيح، والإبطال والتصحيح.

التردد في الكتابة لتوزّع البال:

وأنيّ لمثلي رتبة أن أتحكم بين هؤلاء المراجيح ؟

ولكن لما كان الأمر واجب الاتباع، ومما لا رخصة شرعاً ولا عقلاً أن لا يطاع، تجاذب رأيا الاقدام والاحجام، وتجاوب عزما التسويف والاتمام.

فرأيتني أقدم رجلاً وأؤخر أخري، أتردّد بين الأمرين أيهما أحري. حتي أمرت بلسان الإلهام، لا كوهم من الأوهام، أن أتبع النص القاطع، الناطق بأن امتثال حكم أولي الأمر لطاعة الله ورسوله رديف وتابع.

فلاح لي أن لا فلاح إلاّ بالائتمار للأمر الأعلي، وأنه الواجب الأقدم واللازم الأولي.

فاستخرت الله وشرعت فيه مع وهن البني، وضعف القوي وتوزّع البال وتشتّت الحال، لأسباب.لا أبوح إلاّ بواحد منها هو أني كنت إذا ذاك

---

(١) هو أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، ولد في سنة ٤٥٠هـ - ١٠٥٧م ببلدة طوس بخراسان في فارس، وهي غير بعيدة من موطن ابن سينا والفارابي، وكان أبوه رجلاً صالحاً، وهوينتمي إلى قبيلة غزالة التي ينسب إليه اسمها، أنظر : عبده فراج : معالم الفكر الفلسفي في العصور الوسطى، صـ١٢٥، ط١، الأنجلو المصرية، ١٩٦٩م، وانظر : د/ عاطف العراقي : الفلسفة العربية، صـ١٩١، المصرية العالمية للنشر ٢٠٠٣م

متجاوزاً منتصف العَشْرِ، التي هي معترك المنايا، ودَقَّاقة رقاب البرايا،مترقّباً وقتَ فوقتاً وصول رسول الرب إما بشيراً وإما نذيراً.

رسم منهجية الكتابة والبحث:

وأي خطب أهول من هذا، لمن كان بخطر العاقبة خبيرا.

فأعجلني الوقت عن الإستقصاء في الكلام، وايراد كل ما يتعلق بما صنعه من المباحث علي الإلهام، من النقض والإبرام، والهدم والاحكام.

فوافقت طريقة الإمام المرشد في الأصل، لكن لا بطريق التقليد، بل بمقتضي التحقيق البحت، أو بما هو شريطة المناظرة والبحث.

فإن التقليد في أمثال هذا من نزالة الجد، وسفالة البخت.

فإقتصرت علي ما تحقق عندي، وتقرر لدي، وإتضح لي وزال خفاؤه علي مما في كلام الفلاسفة من الضعف والإختلال، أو مما مظنة الإشتباه والاشكال.

فإن المناظرة معهم مفيدة، والمباحثة معهم غير بعيدة، إذ ليس لهم تعويل إلا علي المقدمات العقلية، وتعريج إلا علي الأنظار الفكرية، فإذا انقطعوا عن إتمام واحد من الأمرين، فقد إضمحل ما أرادوه بالكلية.

وأما أرباب الملة، فلهم في أكثر الالهيات دلائل نقلية، قطعية لا مجال للقدح فيها.

إذ هي وإن كانت أيضاً مبنية علي أنظار العقل، حيث لا يمكن صدق المنقول عنه بالنقل، ولابد منه، لكن براهين صدقه صارت من الوضوح، إلي حيث لم يبق الافتقار إلي المحاجة مع منكرها بالمقاولة باللسان.

بل المقابلة معه المقاتلة بالسيف والسنان.

فعلي تقدير إلزامهم في أنظارهم، وافحامهم في أفكارهم، لا يتطرق خلل إلي مطالبهم، التي شدد أركانها وشيد بنيانها بقواطع المعجزات، وسواطع البينات.

وشرطت علي نفسي عندما شرعت في هذا الخطب الخطير والأمر الكبير، أن لا أثبت في هذا الكتاب، إلا ما ثبت عندي بالقطع أنه الحق والصواب.

وأن لا أورد في معرض الإعتراض، إلا ما كان في الواقع موقعاً للاشكال والارتياب.

وأن لا أجيب داعي التعصب إن دعاني إلي الجور والاعتساف.

وأن لا أميل بشيء من المقتضيات عن جادة الإنصاف. وسألت الله متضرعاً مبتهلاً، متخشعاً متذللاً، العون بالتوفيق علي الاتمام، والصون عن الخطأ والخطل في الفهم والكلام.

تسمية الكتاب وترتيب مباحثه:

ولما تم بعناية الله تعالي، منطوياً علي النكت السرية ومحتوياً علي المباحث السنية، صدق رجائي أن يكون نافعاً لي في الأولي والأخري.

فسموت به فخراً، وسميته ذخراً، ورتبت مقصوده كالأصل علي عشرين مبحثاً، مورداً فيها المسائل الموردة ثمة، من غير تغيير في أصولها إلا يسيراً.

ولكن جعلت بين سوق الكلام في الاثبات والرد هنا، وثمة بوناً بعيداً،

وفرقاً كثيراً.

والله المستعان علي كل مأمول، وهو حسبي ونعم المسؤول.

المقدمة

ولنمهد قبل الخوض في مقصود الكلام، مقدمة نافعة في الوصول إلي المرام، دافعة لكثير من تشاويش الأوهام، وهي أن الوهاب الحكيم، عز شأنه، أعطي الإنسان عدة قوي ظاهرة وباطنة، جسمانية ونفسانية، يترتب علي كل منها نوع من الآثار، ويتم بها ما لا بد له منه، ويهمه أو يفيده في حصول أغراضه، وما ينبغي له في نشأته الأولي والأخري.

عجز قوي الإنسان الظاهرة والباطنة:

ولكنه جلت قدرته، إقتضت حكمته ألا يبلغ قدر هذه القوي مبلغاً يترتب عليها جميع مراتب تلك الآثار، بل يقتصر علي نهاياتها.

فلا قوته البصرية تفي بإبصار كل ما يمكن أن يبصر، ولا قوته السمعية بسماع كل ما يمكن أن يسمع، ولا قوته الجذبية بجذب كل ما يهواه، ولا قوته الدفعية بدفع كل ما لا يرضاه إلي غير ذلك من قواه.

فقوته الإدراكية أيضاً - أعني عقله - وإن كانت أتم قواه وأقواها، ليس من شأنها أن تدرك حقائق جميع الأشياء وأحوالها، حتي الأمور الالهية، إدراكاً قطعياً لا يبقي معه إرتياب أصلاً.

كيف؟ والفلاسفة الذين يدعون أنهم علموا غوامض الالهيات باستقلال العقل.

ويزعمون أن معتقداتهم تلك يقينية، وإن كانوا أذكياء أجلاّء قد عجزوا عن تحقيق ما بمرأي أعينهم، ومشاهد أبصارهم وهو الجسم المحسوس، حتي إختلفوا في حقيقته.

اختلاف الفلاسفة في حقيقة الجسم المحسوس:

- فذهب جمهور: إلي أن أصل تركيبه من الهيولي والصورة.

- وذهب عظيمهم الذي هو أفلاطون[١]: إلي أنه ليس في الأجسام هيولي وصورة، بل الأجسام التي ليست مركبة من أجسام مختلفة الطبائع - وهي أركان العالم كالماء والنار مثلاً - أشياء بسيطة هي هذه المتصلات كما هي عند الحسّ، وسائر الأجسام السفلية مركبة من العناصر الأربعة المشهورة.

- وذهب ديموقراطيس[٢]: إلي أن الأركان مركبة من أجزاء بالفعل، هي أجسام صغار صلبة، غير قابلة للإنقسام.

---

(١) أفلاطون : هوأفلاطون Plato أو Platon فيلسوف يوناني، وتعني : واسع الأفق، ولد في أثينة وتوفي فيها عن عمر يناهز الثمانين عاماً، ينتمي إلى أسرة أرستقراطية، إذ يتحدر أبوه أرسطون من كودرس، آخر ملوك أثينة، وتنتسب أمه فريقتيونة إلى الحكيم سولون، وتضم أسرتها الأرستقراطية بعضاً من رجالات أثينة وأعيانها، منهم أخوها خرميدس Charmdes وابن عمها أقريطياس Critias، وهما من الأعضاء الثلاثين في حكومة الأقلية (الأوليغارشية) التي حكمت أثينة (٤٠٤- ٤٠٣ق.م) في شباب أفلاطون. ويعد أفلاطون من أشهر فلاسفة اليونان القديمة، إلى جانب معلمه سقراط وتلميذه أرسطور، وممن تركوا أثراً عميقاً في تاريخ الفلسفة وفي تاريخ الفكر السياسي.

(٢) هو ديموقريطس Democritus، (٤٦٠-٣٦١ق.م)فيلسوف يوناني، ولد في أبديرا من أعمال تراقية باليونان، ومن المحتمل أنه عاش ما بين ٩٠ إلى ١٠٩ سنوات، واشتهر بأنه «الفيلسوف الضاحك، كان أحد الفلاسفة المؤثرين في عصر ما قبل سقراط، وكان تليميذا للفيلسوف ليوكينوس الذي صاغ النظرية الذرية للكون، وديموقريطس درس الرياضيات والهندسة في مصر، وتفوق على علماء عصره والمهندسين المصريين. وقد أنفق ثروة طائلة في الترحال طلباً للعلم والإطلاع، فكان أول فيلسوف يوناني يزور بابل، وبلاد المشرق، كما ذهب إلى أثينا وأقام فيها، وذهب إلى بلاد فارس والهند وحاور الفلاسفة العراة فيها، ثم عاد إلى موطنه الأصلي حيث أسس مدرسة جمع فيها تلاميذه إلى أن توفي عندما أقدم على الامتناع عن الطعام طوعاً.

اختلافهم في حقيقة النفس:

بل لهم في حقيقة النفس اختلاف كثير، بحيث لا يسع تفصيله إلا مجلد كبير. واستدل كل واحد علي مذهبه بما هو ليس بقطعي، وأبطل دليل غيره، فعلم أنهم ما قدروا علي معرفة شيء من الأجسام معرفة تامة مزيلة للإشتباه، ولا علي معرفة نفسهم، التي هي أقرب الأشياء منهم.

فمن كان مبلغ علمه أنه ما عرف حقيقة ذاته، ولا حقيقةً بينةً يأخذها بيده، وينظر إليها بعينه، ويبذل غاية جهده في التفكر بها، طالباً للإطلاع علي حقيقتها.

كيف يظن هو بنفسه أو غيره به، أنه قد وقف بإستقلال عقله واستبداد فكره، وقوفاً قطعياً علي أسرار أحوال الصانع ذي العزة والجبروت، وأحاط إحاطة تامة بدقائق الملك والملكوت؟.

وكثيراً ما يظهر شخص نازل المرتبة في الفطنة والذكاء قليل المعرفة بالأشياء، ممن يلعبون باللعب غرائب الصور يقضي منها العجب، وتتحير في كيفية حالها العقول، ولا يتيسر لأحد بمجرد الفكر إلي حقيقتها الوصول.

أفعجائب شأن الله وصفاته، وغرائب مصنوعاته، صارت أهون وأبين من تمويه هذا العاجز الذليل؟ كلا .

فإن بعضاً منها، وإن كان مما يستقل العقل فيه بإقامة الدليل فكثير منها لا يهتدي فيه إلي سواء السبيل، إلا بتسلم من المؤيد، من الملك الجليل، للآيات الظاهرة، والمعجزات الباهرة، الدالة علي صدقه في أقواله، ورشده في أفعاله.

فإن هذا هو المتمسك الوثيق، وبأن يؤثره العاقل للإعتصام به حقيق.

والمنكر لظهورها عن الأنبياء، أو لدلالتها علي صدقه، بأن يطرح عن درجة الخطاب معه خليق.

مزاحمة الوهم للعقل في الالهيات:

وأما ما يورده المستبدون بالعقل، فيما يخالف قطعيات الشرائع، ويدعون أنها دلائل قطعية، فهي غير مسلمة لهم. فإن الوهم في الالهيات مزاحم قوي للعقل، بحيث تشتبه كثيراً أحكامه بأحكامه، ويتعسر جداً التمييز بينهما.

ولا تخلص عن هذا إلا بالرجوع إلي ذلك المتمسك الوثيق وليس له سوي ذلك طريق، ومن اقتحم البحر الخضم بدون السفينة، فهو لابد غريق.

مدح أرسطو[1]:

ولقد أنصف من الفلاسفة من قال: لا سبيل في الالهيات إلي اليقين، وإنما الغاية القصوي فيها، الأخذ بالأليق والأولي. ونقل هذا عن فاضلهم أرسطو.

فإن الدلائل التي أوردوها علي أصول معتقداتهم، المخالفة لليقينيات الدينية، وادعوا أنها قطعيات، وجوه الخلَل فيها ظاهرة، كما ستقف عليه بعون الله تعالي.

وإنما وقعوا فيما وقعوا، لأنهم أوتوا من عند العزيز الحكيم فضل ذكاء وفطنة، حتي تيسر لهم استنباط علوم يقينية لا شبهة فيها، بمجرد أفكارهم وأنظار عقولهم، مثل: الهندسيات والحسابيات، وما ينتمي إليهما، والمنطق وغير ذلك.

وقد أحسنوا في ذلك، وأجملوا، وفاقوا، ولاقوا، بأن يفضلوا ويعتقدوا.

---

(١) أرسطو : أو أرسطوطاليس، هو فيلسوف إغريقي ويعد ثاني فلاسفة الغرب، ولد ارسطو عام ٣٨٤ قبل الميلاد في مدينة ستاغيرا في شمال اليونان، وكان والده طبيبا مقربا من البلاط المقدوني، وقد حافظ ارسطو وتلاميذه من بعده على هذا التقارب. وقد كان لوالده تأير كبير عليه لدخوله مجال التشريح ودراسة الكائنات الحية التي منحته القدرة على دقة الملاحظة والتحليل. وفي عام ٣٦٧ رحل ارسطو الى اثينا للالتحاق بمعهد افلاطون، كطالب في البداية، وكمدرس فيما بعد. وكان افلاطون قد جمع حوله مجموعة من الرجال المتفوقين في مختلف المجالات العلمية من طب وبيولوجيا ورياضيات وفلك. ولم يكن يجمع بينهم رابط عقائدي سوى رغبتهم في إثرا وتنظيم المعارف الانسانية، وإقامتها على قواعد نظرية راسخة، ثم نشرها في مختلف الاتجاهات، وكان هذا هو التوجه المعلن لتعاليم وأعمال ارسطو ، ويعد أرسطو من أهم الشخصيات المؤثرة والمؤسسة للفلسفة الغربية، كما أنه كتب في العديد من العلوم والمعارف.

فلم يشكروا لهذه النعمة الجزيلة، وجعلوها وبالاً علي أنفسهم.

فأعجبوا بآرائهم وعقولهم، فحداهم ذلك إلي أن يتعدوا حدود ما يحب للعاقل أن لا يتعداه، ويتصدوا لما لا ينبغي للبشر أن يتصداه، كما يشير اليه قوله تعالي [إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى] {العلق ٦:٧} .

والذكاء، وإن هو شيء لابد للإنسان في الوصول إلي سعادته منه، لكنه مما يضل به كثير، ويهدي به كثير.

وحين حسن ظن أقوام بهم، بسبب إقتدارهم علي إستباط تلك العلوم، وجودة أنظارهم وأفكارهم فيها، اعتقدوا حقية كل ما يقولون، وان كان من قبيل [سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ] {النحل:٥٩}. وإذا أورد عليهم مواقع الزلل في مقاصدهم، ومواضع الخلل في دلائلهم، تشبثوا في الذب عنهم بأذيال الجدال والعناد. وإن عجزوا عن هذا أيضاً، حملهم حسن الإعتقاد بهم علي أن يقولوا: هم مبرأون عن الزلل، وكلامهم عن الخلل.

غاية الأمر: أنا لا نصل إلي كُنهِ ما قصدوا، وحقيقة ما أوردوا، وهذا إفراط في الإعتقاد بهم، لا يليق بشأنهم، بل بشأن الأنبياء الثابت صدقهم بقطعي الدليل.

كيف؟ وهم إن كانوا أذكياء أجلاء، فمن غيرهم أيضاً رجال.

وكثيراً ما نجد في كلامهم ما يحكم العقل ببديهته، أن ليس لصحته مجال، وخلاف ما يقتضيه العقل بلا خلاف محال وفيض الفياض لا ينقطع في كل حال.

ونحن نحمد الله علي أن هدانا إلي سواء السبيل، ونتكل عليه وهو نعم الوكيل.

القسم الأول:

فمنها ما يرجع الخلاف فيه إلى مجرد الاصطلاح والتسمية كإطلاق بعضهم اسم الجوهر على الله تعالى، مريداً به القائم بنفسه.

ونحن لا نطلقه عليه تعالى، لأنا نريد بالجوهر: المتحيز بالذات، أو الممكن القائم بنفسه.

وهو عز شأنه منزه عن التحيز والإمكان.

وأكثرهم يوافقوننا في عدم إطلاق الجوهر عليه، وستسمع الكلام في هذا إن شاء الله تعالى.

وهذا نزاع لفظي، لا يفضي إلى مخالفة في المعنى، غير أن يقال: هل يجوز شرعا إطلاق هذا اللفظ عليه تعالى، بأي معنى كان، أم لا؟

فإن أسماء الله تعالى توفيقية، على ما هو المختار، لكنا الآن لسنا بصدد بيان مثل هذه الأحكام، وليس له مناسبة بغرضنا هنا، فانه من الفقهيات، فلا ننازعهم فيه.

القسم الثاني:

ومنها ما يخالف حكمهم فيه ظواهر ما يفهم من الشرائع، لكن لهم عليه أدله قطعية، ونصوص الشرائع في خلافه غير قطعيه، وإما متناً، أو سنداً، ككثير من أحكام علم الهيئة مثل كروية السماوات والأرض، وكيفية نضدها وترتيبها وحركاتها، وكيفية الخسوف والكسوف وسببهما، وغير ذلك.

فأنها أمور تثبت عندهم، إما بأدلة قطعية هندسية، أو بأرصاد تجرى

مجرى المشاهدات.

وليس فى الشرائع دليل قطعي الثبوت، غير محتمل للتأويل على خلاف ما حكموا به.

وكيف يتصور وقوع أمرين متعارضين قطعيين؟ نعم ظواهر النصوص تدل على خلاف بعض أحكامهم، ولكن باب تأويل الظواهر عند الحاجة مفتوح، فلا نشتغل في هذا الكتاب بالبحث عن هذا القسم أيضا.

القسم الثالث:

ومنها ما خالف حكمهم فيه الشريعة، وليس لهم عليه دليل قطعي.

وغرضنا الأصلي من وضع هذا الكتاب، الرد عليهم في هذا القسم، وهو على وجهين:

الوجه الأول:

الأول أن يؤدى حكمهم إلى كفرهم، لمصادمته، مع ما ثبت بالقطع من الشارع، كالحكم بقدم العالم، ونفى المعاد الجسماني.

فإن أدلتهم على هذين المطلوبين، وأمثالهم - كما ستقف عليه- ضعيفة، وحجج الشرع فيها قطعية.

الوجه الثاني: والثاني، أن لا يؤدى حكمهم إلى كفرهم لعدم قطعيه أدله الشرع على خلافه، كنفيهم الصفات الحقيقية عن الله تعالى زاعمين أن ثبوتها ينافي التوحيد.

فإن نصوص الشرع، وإن دلت دلالة ظاهرة على ثبوتها لكنها محتملة

للتأويل، كما تُأول النصوص الداله على ثبوت الوجه واليد، وغيرهما له تعالى.

ولهذا وافقهم بعض الملبين على هذا.

ثم، لما كان من المقصود من وضع الكتاب، اطلاع المعتقدين فيهم ما قصرت درجاتهم عنه، وتنبيههم على أنهم ليسوا بالمثابة التي توهموها، والمتانة التي زعموها، من تَبرُئِهم عن الخطأ والزلل، لم نقتصر على بيان خطئهم في المطالب.

بل نورد بعضاً مما أخطأوا في الدلائل، وان كانت الدعوى حقّه، ليتبين لهؤلاء من عدة وجوه:

- أن هذا الإفراط في الاعتقاد بهم، عن مجرد تقليد، لا عن تحقيق وتسديد.

- وأن كثيراً من آرائهم عن ظن وتخمين، لا عن علم ويقين.